الفصل السابع والعشرون

غريزة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنية، يحدث من اهتزاز أوتار الحلق اهتزازا يخرج الصوت خفيفا وشديدا، مرتفعا ومنخفضا بحال تعرف بالنغم والتلحين. والناس يتفاوتون فى مبلغ التأثر به، ولذلك تجد البارعين فى الغناء يطوفون على ضروب الأنغام، وينوعون استعمالها، ويرجعونها لعلها تهز الأريحية، وتضرب على الوتر الحساس الذى يطرب النفوس.

وما ذا عسى أن يدل على تغريد الطائر وهو فى أعماق قفصه؟ أهو يشكو السآمة من وحشة الحبس؟ أم يسرى به تباريح الحزن؟ أم يصدح فرحا لأن العادة أنسته حاله الأولى، وجعلت له من القفص موطنا مقبولا؟

قال المعرّي:

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميـــاد

والغناء يؤثر فى النفس أضعاف تأثيره فى نفس السامع، فيلهيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته.

نقل المبرد عن عمر الوادى أنه قال: " أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى أعالى الجبال من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصلن إليه ولو بذهاب نفسي، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود، فقلت له: أعد على ما سمعت.

فقال لي: سمعا وطاعا

ثم انبرى يغنيني :

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

إلى آخر ما أنشد. قال عمر: فحفظته عنه ثم تغنيت به على الحال التى وصفها هو كما ذكر.

تأثير الغناء فى الإنسان والحيوان:

إن الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء، فالقردة والدببة والفيلة والهوام تهتز عند سماعه هزا يدل على ارتياح واطمئنان. فقد روى أن من أفاعى الهند هامَّة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها الكبرى، تعد ضحاياها بالآلاف كل سنة، وهى مع شدة جموحها وعدوانها يذللها الغناء. فإذا سمعته وهى فى أعماق أحجارها تخرج متهادية، ثم تنصب رقبتها نحو المغني، وتهتز على رنين النغمات، وتنحدر فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين.

وزنوج السودان يتهافتون على صوت الغناء، آتين إليه من كل حدب، عاقدين له حفلات الرقص، رافعين عقيرتهم من شدة تأثيره فى أمزجتهم.

والطفل الرضيع يحزنه الحزن، وتختفه العبرة، ويبرح به البكاء تغنيه أمه " نم يا حبيبى بسلام " فيهدأ مضطرب مزاجه، وينام آمنا مستريحا، ذلك لأن نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه.

والعمال يطول بهم زمن العناء البدنى فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداما ونشاطا ، وقد يلهى الغناء أرباب المهن عن مزاولتها، قال لص عن نفسه: دخلت ذات ليلة فى ملهى موسيقى لأترقب فرصة للسرقة، ولما ارتفع صوت الغناء المشجى غاب صوابى وألهانى الإنصات له عن مزاولة مهنتي، فخرجت من

الملهى مملوء الأذنين، صفر اليدين.

وللأمم فى فضل الغناء حكايات متداولة ربما عزاها السامع إلى مبالغة الخيال، وليس بكثير على لغة العواطف أن تسيطر على النفوس وتفعل بها فعل السحر.

قيل: إن مدينة هملين فى ألمانيا كانت تموج بالفئران من صنوف شتى، تعيث فى الأرض وتشارك السكان فى أرزاقهم، وتكدر عليهم صفاء عيشهم، وتبدد متاعهم. إذا جلسوا مجالس الأنس هالهم دبيبها فبدلوا بالأنس وحشة، وإذا ناموا أوجعهم طيفها فى أحلامهم، وإذا قدمت لهم الموائد أقاموا عليها الحراس تقيهم فتكاتها، وترد عنهم هجماتها، وربما خافوها فولوا مذعورين، وخرجوا على وجوهم هائمين، ودائما كانت دهشتهم منها ملء قلوبهم وحديث سمرهم. وما سمعوا علاجا لإبادة الفيران إلا جربوه، ولا عرفوا فخا إلا نصبوه؛ وقلما صادوا منها شيئا يذكر. فاجتمع مندوبوهم ليتفاوضوا فى أنجح الوسائل لإبادتها، واستئصال شأفتها. وبينما هم يطرحون الآراء، إذا شيخ أشيب طويل القامة نحيف الجسم بش الوجه غريب الزى وعلى عنقه مزمار، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه الغمة إذا وعدوه بالمكافأة، فأطمعوه فى الأجر إذا نجحت حيلته، ومنوه بصداقتهم متى تحققت بشارته.

فخرج الرجل من فوره إلى الشارع، وأخذ يعزف بلحن مشج، فما لبثت الفئران **أن خرجت من** مخابئها مسحورة لا لتلوى إلا على صوته. وكلما مر بشارع خرجت أسراب فئرانه تتنافس وثوبا وقفزا فى اللحاق به. فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهنالك أغرقها.

ذاع هذا الخبر فطار السكان فرحا به، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوهم اللدود. ولما قضى الرجل مهمته عاد إليهم مستنجزا وعدهم، فوجموا وهزئوا بقوله وغمطوا حقه، فاستشاط غضبا وعمد إلى الانتقام، فخرج مسرعا وتناول مزماره وأخذ يعزف بلحن بديع، فما سمعه إنسان

حتى اقترب منه وسار معه، فتبعه الأطفال والصبيان والشبان والشيب والكهول وعلى وجوهم سيماء الفرح والاستبشار، فما علموا حتى جاوز بهم حدود المدينة، وتغلغل فى مجاهل قاحلة، وفر منهم كأنما راكب جناحى نعامة، وتركهم فتاهوا، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم. فقدر كيف تكون براعة هذا الرجل فى التأثير بالغناء الذى تصبو إليه على السواء نفس الحيوان والإنسان.

وإذا انتقلنا إلى أسمى مراتب الإنسان، وتفقدنا الفلاسفة وقادة الأفكار وتحرينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس وراءها مزيد. قيل عن معاوية: إنه رافق عمرو بن العاص، وتوجَّها إلى عبد الله بن جعفر ليعيبا عليه جلوسه فى مجلس الغناء. وعندما أنصت معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب، فأخذ يحرك يديه ورجليه يضرب بها وجه السرير الذى كان جالسا عليه، فقال له عمرو: اتئد يا أمير المؤمنين، فإن الذى جئت لتلقاه أحسن منك حالا وأقل حركة. فقال له معاوية: اسكت لا أبالك فإن كل كريم طروب. وكذلك حضر الرشيد حفل غناء فسمع إبراهيم بن المهدى يغنى بأبيات لمروان أبى حفصة:

طرقتك زائرة فحى خيالها ... زهراء تخلط بالجمال دلالها

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة من ربكم ... جبريل بلغها النبى فقالها

فطرب الرشيد حتى صار شدة نشوته يقوم ويقعد.

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، حضريهم وبدويهم، عالمهم وجاهلهم، وربما كانت نفوس المفكرين أشوق لسماعة، وأشد تعطشا لإيقاعه، لاحتياجهم إلى ما يسرى عنهم الهموم، ويذهب عنهم عناء التفكير. وماذا عسى أن نقول فى الغناء وهو التيار الروحانى ينبعث فيصيب القلوب، ويملك قيادها قسرا، ويستخف بالجسم، فتثور الأعضاء، ويضطرب

الجنان ويهتف اللسان، ويهلل ويكبر، ويستعيد ويزيد. وهذه الانفعالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سريان يزيد حركة النفس زيادة مقبولة كما حققته تجارب الحكماء. وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانشراح الصدر. قال حكيم يوما لتلميذه وقد عزفت الموسيقي: أفهمت؟ قال: نعم. قال له: بل لم تفهم، لأنى لا أرى فيك سرور الفهم. وقد استعان به الأطباء لمعالجة الأمراض العصبية، واستعان به النفسيون لتذليل الخواطر الأبية. فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده، فما ظنك به إذا شارك الشعر وامتزج به؟ وللشعر كالغناء ترنيم وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب، واجتماعها معا يوقظ التدبر والتفكر لتقدير المعانى التى يحويها الشعر فى أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف.

ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحن المغنى هذه الأبيات!

وأقسم ما أدنيت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلي

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلي

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

تاريخ الغناء:

ولو نقبت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامى فى إحياء العواطف ما وجدت أمة خاضت غمار الحياة السعيدة بدونه. وإذا كانت متاعب الحياة تفل عزم النفس فإن سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدتها الأولي. به كانت ملوك الفرس تلهى المحزون وتعلل المريض وتشغله عن التفكير فى مصائبه. وقديما أبدع الإغريق فى صناعته أيما إبداع، وتوسلوا به فى قضاء الحوائج، حتى كان إذا دب الخلاف بينهم استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء، وأسمعوهم النصائح بلسان الغناء والموسيقى فيلين طباعهم، ويكبح جماحهم. وكذلك عول عليه العرب فى مهام

أمورهم، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنيات، يستنهضن الرجال للذود عن الحريم والوطن. فينسى الجندى نفسه عند سماع نبراته، ويحمل على العدو معرضا حياته للخطر، والحياة أعز شيء للإنسان ؛

إذا ترنم شاد للجبان به　　لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق

ناهيك بالعصر العباسى الذى ازدهى بجمال الشعر ورائع الغناء، فاحتفى به الخلفاء، وأسدوا الجوائز إلى المجيدين فيه، صبت إليه نفوس العامة والخاصة بعد أن هدأت الخواطر من أنباء الغزو، وبعد أن شبعت من ثمار الفتح، ورفرفت عليها ظلال الحضارة، فاتخذت من لسانه ترجمانا يعرب عن أغراضها. كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر الرصين، وكان أبو إسحاق إبراهيم الموصلى يغنيه فى حضرة الرشيد فينصت إليه، ويقبل عليه، ويهتدى بهديه. وكان الغناء إذ ذاك مفزع الأمة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتثير به سورة الغضب استعدادا للمهاجمة. ولما هموا بالوقيعة بين الرشيد والبرامكة أسمعوه بلسان قول قينة عمر بن أبى ربيعة:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد　　وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحـــدة　　إنما العاجز من لا يستبد

فانحرف الرشيد عنهم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء، ولم يقبل فيهم قول شفيع، وزج بهم إلى أعماق السجون.

وكما خيل إلى " ترتينى " أنه سمع غناء الشيطان فى الحلم بما قصصته فى باب الخيال، خيل إلى أبى إسحاق الموصلى أنه سمع غناء الشيطان فى اليقظة، ذلك أنه خرج فى ليلة ممطرة يتحسس عن مغن يشاركه فى إحياء حفلة، فقابله ضرير استدعاه إلى منزله، ثم شرع أبو إسحاق يغنى معجبا بصوته فاستخف به الضرير، وقال له: لقد قاربت أن تكون مغنيا، وتناول العود فجسه، وضرب على أوتار فى نغمة ليس لأبى إسحاق عهد بسماعها، فدهش مما سمع، ولما خرج الأعمى ودعه أبو إسحاق فإذا هو قد غاب، **ولم يدر أفى السماء صعد، أم فى الأرض هبط، فخيل**

إلى أبى إسحاق أن هذا الضرير شيطان تنكر له فى هذه الصورة لينزله من عالى غلوائه.

وربما اشترك المغنون والعازفون، واستعملوا من آلات العزف العود والقانون والقيثارة والرق والناي، فيخرج من صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل فى النفس فعل السحر الحلال. ولم يكن الغناء مقصورا على مجالس اللهو، بل اتسع له المجال كذلك فى مجالس العبادة منذ زمن داود عليه السلام. ومنه استعير نوع من الترتيل فى المساجد والكنائس، وتصدى له قراء القرآن بالإجادة، فاجتذبوا به المسامع، وشنفوها بحكمه وأحكامه، وقد ورد " **زينوا القرآن بأصواتكم** "

كان الإغريق أشد الأمم اعتدادا بالغناء واهتماما به فى المدارس، مرنوا عليه الأطفال منذ الصغر، فعودوهم النفخ فى الناى والضرب على الأوتار. وكان فرويل يتنزل إلى مستوى الصبيان ليتعرف ميولهم وما يتشوقون إليه. مر يوما بامرأة على إحدى ذراعيها غلام، ورآها تتقدم به إلى دجاجة، وظلت تحاكى صوتها، وتحرك أصابعها لتدعوها إليه، فما لبث الطفل أن حاكاها بأصابعه وصوته، فكان لهذا المشهد تأثير رائع فى نفس فرويل حبب إليه نظم النشيد، فألف منه ما سماه " دعوة الدجاج "، وهكذا ظل يترقب الفرص، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة، فى الحفلات الدقيقة البديعة. فإذا تاق الطفل إلى صنع طيارة مثلا، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحن فى هذا المعني. وإذا تاقت نفسه إلى مداعبة القط أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهره بهاء ريشه وخفه حركاته ورائع غنائه، فقد استعد للإنصات لنشيد يجمع هذه الأغراض، وحينئذ تطمح نفسه إلى تزييل النشيد فى وقت تتوق فيه إلى التهذيب والتثقيف.

يجعل بنا أن نحبب إلى الأطفال ترتيل الأناشيد فى أثناء اللعب، فإن اجتماعها معا ينشط الجسم، وينعش الروح، ويبرز الشعر فى أجمل حلة، ويقوم فيهم آلة النطق، ويذهب عنهم سآمة القراءة المجردة من رخامة الصوت. نريد أن ندخل تدريس

الغناء فى مناهج مدارسنا لنعيد ما درس من صناعة أسلافنا، ولنستخدم قوته الروحانية فى تذليل مصاعب الحياة، فإن نفوسنا كثيرا ما تعروها السآمة فتحتاج إلى ما ينبهها. ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حقق لنا أن نجرد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التى دهمت الغناء، فقد تناوله أهل البطالة، واتخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق، فشوهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة تراكيب أجنبية لا ضرورة لها. ولا سبيل لتعويد المسامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذة والتراكيب الجزلة إلا بجودة الترتيل وحسن الغناء. فليمد الأدباء والمغنون أيديهم للأخذ بناصرها، فالآمال معقودة بمساعدتهم.

لكن مهما تعددت النبرات الموسيقية فإننا لا ننكر أنها تمس أوتار القلوب وتعزف أغنية الحب الجميلة نرقص لها طربا، ونهتز لها فى نشوة ومرح وسرور ناسين همومنا وأحزاننا.